الفوضى نقيض الحرية

احمد الحبيشي
ahmedalhobishi@yemen.net.ye

تستعد البشرية بأسرها لإستقبال العام الثامن من الألفية الثالثة الجديدة التي ارتبط ظهورها بتحولات عاصفة ومتسارعة أسهمت في تغيير بنية العالم وإعادة صياغة العمليات الجارية في مختلف حقول العلم والفكر والسياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية ، وما يترتب على ذلك من ضرورة إعادة تعريف العديد من المفاهيم المتعلقة بقيم الحق والعدالة والحرية والسلطة والثروة والمعرفة والأمن والسيادة.

في سياق هذه التحولات غير المسبوقة برزت العولمة كمنظومة جديدةٍ من الإشكاليات والتناقضات والعمليات المعقدة ، لتطرح أمام العقل عدداً من الأسئلة والتحديات التي تتطلب أجوبة غير مسبوقة ، لا تستطيع الآيديولوجيا توفيرها ، ولم يعد بمقدور صيغ التفكير المطلقة والقوالب الجاهزة معالجة معضلاتها .

لا ريب في أن العالم المعاصر يشهد متغيرات و تحولات غير مسبوقة في ظل النظام الكوني الجديد الناشئ .. وفي هذا العالم المتغير يواجه العرب والمسلمون تحديات حضارية بسبب الفجوة الحضارية التي تفصلهم عن عالم الحقبة الواقعي ، وتعاظم إحساسهم بقوة صدمة ما بعد الحداثة .. فالعالم العربي والإسلامي لا يزال عاجزاً عن الإجابة عن أسئلة صدمة الحداثة الأولى التي داهمته قبل مائتي سنة ، ولا ريب في أن هذه التحديات تقتضي تشغيل مفاعيل الاستجابة لها كضرورة يستحيل بدونها عبور الفجوة الحضارية التي تحول دون الحضور الفاعل للمجتمعات العربية والإسلامية في هذه الحقبة من تطور العصر والعالم .

الثابت أن هذه الاستجابة تصطدم بهاجس الشعور بالعجز الذي يبحث أحياناً عن مسوّغات لتبرير العجز ، بدلاً من البحث عن محفّزات لتجاوزه ، وهو ما يفسر الميول الى إعادة إنتاج الخطاب المحبط الذي تم التعاطي معه عند الصدمة الأولى في بداية الأمر ، ثم التمرد عليه ورفضه والتشكيك به واستبداله بالسلفية المتحجرة في وقت لاحق .

يقيناً إن التخلف ليس قدراً مطلقاً .. ولعل ما يميز الواقع العربي والإسلامي في عصر العولمة وما بعد الحداثة الذي تزامن مع ميلاد الألفية الثالثة من التاريخ الميلادي ، عن عصر الحداثة الذي دشنته الثورة الصناعية الأولى والثانية قبل ثلاثمئة عام ، هو استمرار تخلفه بوتائر متصاعدة ، مع وجود فرص موضوعية لتجاوز واقع التخلف .

صحيح أن العالم العربي والإسلامي تخلف عن اللحاق بعصر الحداثة الأولى الذي دشنته الثورة الصناعية والتقنيات العلمية في القرن السابع عشر، وبلغت ذروتها في القرون الثلاثة الأخيرة ، وكان من نتائجها تقسيم العالم الى مركز مهيمن وأطراف تابعة ومعزولة ، وما ترتب عن ذلك من عالمية ذات طابع عمودي .

لكن عصر الثورة الإليكترونية ، بما هو عصر العولمة وما بعد الحداثة يتسم بالنزوع الى تغيير خارطة العلاقة بين مفاعيل النظام الكوني .. فالمادة لم تعد عضوية وآلية بل اليكترونية ومعلوماتية .. وبالمقابل لم يعد الفكر يبحث عن الحقيقة من خلال المعطيات الموروثة والقائمة فعلاً ، بل من خلال المعطيات التي يهتم العقل بالتفكير في إبداعها وإنتاجها عبر تقنيات المعلومات وشبكات الاتصال ، وما يترتب عن ذلك من تغيير العلاقة بين الوعي المعرفي والواقع الملموس .

مما له دلالة ـ في هذا السياق ـ ان الآلة بوصفها أبرز معطيات الحداثة الإنتاجية في حقبة الثورة الصناعية ، انتجت وقائع و حقائق جديدة ، ووحّدت العالم في شبكة علاقات ذات طابع عمودي .. بيد أن دخول الرقم كعنصر حاسم في الإنتاج الاليكتروني جعل الواقع والحقيقة مفتوحين أمام تحولات بلا حدود .. بمعنى إمكانية إكساب العالم الواقعي بنية أفقية اندماجية لامتناهية ، بعكس عالم الثورة الصناعية العمودي والمجرد !!

كانت التناقضات في عالم الحداثة الصناعية قائمةً بين بنى وهياكل محورية ذات حدود صارمة ، وبين فواعل ومفاعيل ترتبط فيما بينها بعلاقات عمودية .. امّا عالم ما بعد الحداثة فهو يتسم بميله لأن يتحول الى بنية سوقية محورية و مندمجة ، تصبح التناقضات معها قائمةً بين فاعلَيْن متميِّزَيْن بطريقتي تفكير متناقضتين .. الأول يفكر بعَقلية ديناميكية ويعمل على تطوير أنماط التفكير والعيش من خلال الإندماج ضمن سوق كونية تتوفر فيها فرص غير مسبوقة لتبادل المعطيات من أفكار وسلع وخدمات ومعلومات ، فيما يفكر الآخر بعقلية إنعزالية تقليدية ، ويصر على العمل وفق قوالب مدرسية نقلية ، وأفكار ماضوية جاهزة ، ما يؤدي الى إهدار الفرص المتاحة للتقدم ، والإستمرار في إعادة إنتاج العجز ، وتهميش الذات بالذات نفسها!!

من المفارقات التي تميز عصر العولمة وما بعد الحداثة عما قبله ، انه ينطوي على حوافز وفرص تفتح إمكانات هائلة أمام كل من يرغب في الإندماج به للتأثير في مفاعيله الداخلية وتغيير قواعد حركتها .. بمعنى ان العولمة فضاء مفتوح للمجايلة والمشاركة والإشتغال على معطياتها ووقائعها من خلال قدرات معرفية وأنساق ذهنية ، لا قدرات مادية عضوية كما هو حال الحداثة الصناعية .

يقيناً ان ذلك يتطلب طريقة تفكير جريئة وإقتحامية تجترح صيغاً جديدة للإنفتاح والعمل والنمو والتلاقح والتفاعل ، بدلاً من لعن العولمة والبكاء على أطلال الهوية والخصوصية والسيادة .. وبهذا فقط يمكن للمهمشين المشاركة في جدل العصر ، وتجنب البقاء على الهامش .

لقد أضحت صورة العالم بالغة التعقيد .. فالعولمة تشكل اليوم منظومة عالمية من التناقضات والعمليات المركبة ، حيث تتداخل الأسواق المالية ويتسع الإنتقال الفوري للمعلومات والمعرفة عبر تكنولوجيا الإتصال التي تضغط على الزمان والمكان ، ويتكامل نظام عالمي للإنتاج والتسويق والإستهلاك بقيادة شركات عملاقة متعددة الجنسيات وعابرة الحدود والقارات ، فيما يتم تسويق اجندة سياسية كونية تعيد تعريف الجغرافيا السياسية والإقتصاد السياسي إستناداً الى الفلسفة الليبرالية الجديدة في المسائل المتعلقة بوظائف الدولة والثقافة والأسواق.

يزيد من تعقيد صورة العالم الذي يتجه بخطى متسارعة نحو ذرى العولمة وما تنطوي عليه من اشكاليات ، انه يعاني من بيئة طبيعية غير متوازنة تهدد قدرة كوكبنا الأرضي على توفير حياة آمنة للبشرية ، فيما تواجه جغرافيا هذا الكوكب تحديات وضغوط العمليات السياسية والإقتصادية الرامية الى إعادة تنظيم الحيز والمساحة ، وإلغاء الحدود والموانع التي تحول دون حرية مرور رؤوس الأموال ومنتجات الثورة الصناعية الثالثة .

لا يخلو العقل من ضغوط التحولات التي تحدث في بنية العالم وصورته تحت تأثير العولمة ، إذ يبدو مهموماً بحراك الخيال العلمي الذي يسعى لإستشراف آفاق غير محسوبة لمجتمع إنساني عالمي يتجاوز الدولة والهوية.

. وفي سياق كهذا يتراجع دور ومكانة الثقافة الشمولية، ويزداد مأزق مخرجاتها المصابة بالجمود العقائدي والوهن الذهني والتفكير المعلّب ، بعد ان تحولت الى لا وعي يُعادي المعرفة ، ويُعيد إنتاج مشاريعَ وأفكارٍ بالية أفلست من أي رصيدٍ او إنجاز قابل للاستمرار .

إلى أين سيأخذنا هذا العالم المتغير بإيقاع متسارع يفضح عجز الأفكار الجامدة والسياسات الخائبة والمشاريع البالية أمام مرآة التحولات الجذرية ؟ ومتى نقوى على فهم هذا العالم والإستجابة لتحدياته ؟

يقول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة : « إن أحوال العالم والأمم والناس وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو الإختلاف على الأيام والأزمنة والانتقال من حال الى حال.. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأبصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول » .

لا يعيب الإنسان ، كما لا يعيب الأحزاب والحركات السياسية والمفكرين والمثقفين والسياسيين ممارسة الحرية القصوى في النقد الموضوعي والنقد الذاتي ومراجعة الأفكار والسياسات وتجديد طرائق التفكير والعمل ، والبحث عن أجوبة جديدة عن الأسئلة غير المألوفة التي تطرحها متغيرات وتناقضات الحياة ، وصولاً الى إختيار وجهة التطور .

ولا قيمة للسياسة حين تكون عاجزة عن المبادرة والإكتشاف .. ولا دور طليعياً للعقل حين لا يجترح تعب البحث عن الحقيقة ، ولا يدرك ضرورة إعادة إكتشاف واقع بحاجة الى المزيد من الكشف ، وإعادة بناء السياسة والفكر السياسي من أجل فهم أعمق للمتغيرات الذي يشهد الوطن و التاريخ والعالم والحضارة البشرية في هذه الحقبة من مسار تطور عصرنا الراهن.

ما من شك في ان التحول نحو الديمقراطية اضحى واحدا من أبرز هذه المتغيرات التي لا تخلو بالضرورة من التناقضات والإشكاليات المعقدة .. والحال ان ثمة علامات بارزة في مسار الديمقراطية الناشئة في بلادنا وهي الميل نحو مزيد من حرية التفكير وحرية التعبير وعلنية المناقشات ، بيد ان الحرية والعلنية غير معصومتين على الدوام من الإنحراف نحو الفوضوية ، الأمر الذي يتطلب اسلوباً واقعياً في التعامل مع المنابع الفكرية والإجتماعية للميول الفوضوية في المجتمع بصرف النظر عن عدم تجانسها .

من الخطأ الإعتقاد بأن الجانب الأكثر جاذبية في الفوضوية هو نزعتها المتمردة على الأوضاع والوقائع السلبية ، بل ان الجانب الأكثر جاذبية فيها هو ثوريتها المتسمة بالجموح الفوضوي تارةً ، ونفاذ الصبر ضد كل شيء تارةً أخرى .

وهنا تبرز اهمية الديمقراطية في التعامل مع الجانب الأول بوصفه احتياطياً مباشراً لآيديولوجيا القفز على الواقع ، وما يترتب عنها من انحرافات انتهازية ، ومع الجانب الثاني بوصفه خطراً مباشراً على التطور الموضوعي للديمقراطية ، وتهديداً بالعودة الى الشمولية والإستبداد . وبوسع التحليل النقدي للإنحرافات الإنتهازية أن يقودنا الى إستنتاج هام ، وهو ان بروز تلك الانحرافات ارتبط على الدوام بمصادرة الديمقراطية وتضييق قنواتها وتعطيل أطرها ، بقدر ما ارتبط النضال ضد تلك الانحرافات بممارسة الديمقراطية وإشاعتها في المجتمع .

من نافل القول ان إرساء دعائم المناقشات الحرة والعلنية بين مختلف الأفكار والآراء ، يعد ـ من الناحية العملية ـ نقداً مباشراً للأخطاء التي ارتكبت في الماضي، أثناء هيمنة الثقافة السياسية الشمولية ونزعات التفكيرالدوغمائي التي ارتبط وجودها بغياب الديمقراطية . والثابت ان تنوع الآراء والأفكار والخيارات في مجرى الممارسة السياسية لا يُضعف وحدة المجتمع ، بل إنه يساعد على أن تكون مهمة إعادة بناء السياسة وتطويرها غيرمحصورة في نخب فوقية تحتكر الممارسة السياسية بصورة مطلقة .

من التحدي الآيديولوجي إلى التحدي الحضاري

د. تركي الحمد □

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت اليابان ومصر تبعثان البعوث إلى أوروبا من أجل معرفة سبب تقدم تلك الأمم، ونقل التجربة الأوروبية في التحديث إلى مصر واليابان. وفي بداية الخمسينات من القرن العشرين، بدأت كوريا الجنوبية انطلاقتها التنموية، فيما كانت كوريا الشمالية تعمل على تجربة تنموية مختلفة، وتحكم شعبها حكماً شمولياً يحسب على الفرد خطواته، ويتحكم في ما يأكل ويشرب، وكم يأكل ويشرب، وحتى كيف تكون علاقته مع زوجته أو رفيقته. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، انقسمت ألمانيا إلى شرقية وغربية، كان الحكم في الجزء الشرقي منها شمولياً، لم يكن الفرد فيه إلا مسماراً صغيراً في آلة ضخمة هي الدولة. وقبيل دخول الخمسينيات من القرن الماضي، انقسمت الهند التاريخية إلى هند وباكستان متعاديتين، كما هو الحال بين الكوريتين والألمانيتين.

ومع بدايات القرن العشرين، بدأت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي انطلاقتهما نحو الحداثة، وبطريقين مختلفين ومتناقضين، حتى أصبحا بعد الحرب العالمية الثانية سيدي العالم المعاصر. وفي عالم العرب، تأسست دولة إسرائيل بُعيد الحرب العالمية الثانية، وشهدت تحولات في تاريخها القصير من كونها «دويلة العصابات الصهيونية»، إلى «الكيان الصهيوني»، إلى «ما يُسمى دولة إسرائيل»، ثم أصبحت دولة القوة العسكرية في الشرق الأوسط.

اليوم، وحين نقارن وضع هذه الدول، نجد التالي: أصبحت اليابان معجزة في الاقتصاد والتقنية، فيما تحولت مصر إلى مثال يُضرب في البيروقراطية وعدم القدرة على مراوحة المكان. كوريا الجنوبية تحولت إلى دولة صناعية، يتجاوز دخل الفرد فيها التسعة عشر ألف دولار سنوياً، فيما شقيقتها الشمالية ترسانة سلاح، ومجتمع فلاحي بسيط يفتقد إلى أبسط أنواع التقنية، والمجاعة والخوف والعزلة وعبادة الزعيم تخيم بظلالها على كل ركن من أركان بلاد كيم إيل سونغ وكيم يونغ إيل. وفي ألمانيا، تحولت ألمانيا الاتحادية إلى معجزة في تحدي الظروف، ونهضت العنقاء الألمانية من بين الأنقاض، ونافست محتليها في كل المجالات، فيما سقطت شقيقتها «الديموقراطية» سقوطاً دراماتيكياً سريعاً، في لحظة مشهودة من لحظات الزمن، وأصبح الجميع اتحادياً. والهند اليوم أصبحت تنافس على مقعد من مقاعد المتقدمين، فيما بقيت باكستان تعاني من أزمة تلد أخرى، رغم أن الجميع في النهاية من الهنود تاريخياً.

وبعد سبعين عاماً من التجربة السوفيتية، سقط اتحاد لينين وستالين وخروتشوف وبريجينيف، في أول تجربة له في فتح النوافذ للشمس على يد غورباتشوف، وأصبحت الولايات المتحدة هي المهيمنة على عالم اليوم، اقتصادياً وعسكرياً وثقافياً، فقد غزت العولمة ذات المنشأ الأميركي كل ركنٍ من أركان المعمورة، وأصبح «الأسلوب الأميركي في العيش» هو السائد عالمياً، حتى لو كان العداء لأميركا يسير جنباً إلى جنب مع انتشار ذلك الأسلوب. وفي بلاد العرب، تحولت «دويلة العصابات الصهيونية» إلى مارد اقتصادي وتقني، يُنتج السلاح وشرائح الكومبيوتر والطائرات، ويفوق فيه دخل الفرد السنوي معظم الدخل الفردي للعرب في مختلف بلادهم، ويصرحون بأنهم سيصبحون في مصاف الدول الأوروبية خلال عشر سنوات أو أقل، في الوقت الذي يتنازع الفلسطينيون حول سلطة باهتة وهشة غير كاملة، ويجزر العراقيون بعضهم بعضاً، في بحر دماء أمطاره لا تتوقف، ويدخل اللبنانيون إلى طائفية بغيضة حسبنا أنهم تجاوزوها من زمن، ونفق مظلم الله وحده يعلم إلى أين يقودهم، ولا بصيص نور في أخره. ويتنافر الخليجيون في وقت لا بد فيه من التعاون والتكامل، ويقبع السودانيون في ظلام صراع دام بين جنوبه وشماله، ويتصارع المغاربة حول أمتار من الأرض، وتضيع ثروة الليبيين في مغامرات لا هدف لها إلا إرضاء الزعيم ، ويتناحر الصوماليون على أمل إعادة التجربة الطالبانية الفاشلة، ورغم ذلك يتقاتلون. والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح هو: لماذا كان الفرق، رغم الفرصة التاريخية الواحدة، ورغم تشابه الظروف، إن لم نقل تماهيها، ورغم أن الله خلق آدم وحواء وسلالة البشر بذات العقل؟

الجواب يكمن في الآيديولوجيا والثقافة المجتمعية التي تنتجها، والتي تقف وراء سلوك الفرد والدولة والمجتمع في آن واحد. والحقيقة أننا لا نستطيع تناول هذا الموضوع من كل جوانبه في مقالة عاجلة، لذا سيكون التركيز على مفهوم «التحدي»، المتحدث عنه في المقالة السابقة، وكيف يتأثر بالثقافة السائدة، وما ينتج هذه الثقافة من عقل مُشكل. فحين يكون العقل مؤدلجاً، فإنه يُنتج ثقافة مجتمعية مؤدلجة، تتسرب إلى عقل الفرد من خلال مؤسسات التنشئة، فتعجنه من جديد إما سلباً وإما إيجاباً. فعندما يلقن السوفيتي أو الكوري الشمالي أو الألماني الشرقي أو الناصري (نسبة لجمال عبد الناصر) والبعثي، أنه لا حقيقة إلا حقيقة الآيديولوجيا المهيمنة، والتي يمثلها الحزب الواحد والزعيم الأوحد، فإنه يُعطي كل الإجابات لكل شيء في الحياة، وما بعد الحياة ربما، ويُحدد له الطريق الأوحد للتفكير والسلوك، ويتحول إلى كائن معتمد على الدولة في كل وجه من وجوه حياته، فيتعطل العقل لديه، ويموت الحافز في أعماقه، وتذبل شرارة التحدي، فيكون التخلف كل التخلف، مهما بدا أن الدولة تفعل كل شيء، كما في حالة التجارب الشيوعية السابقة. الدولة والحزب هي التي تتحدى، وذلك لأغراض آيديولوجية بحتة، وهي التي تفعل كل شيء نيابة عن الفرد، ومن المعلوم أن أي عضو لا يستخدم مآله الضعف ومن ثم الاندثار، وهذا هو بالضبط ما حدث في الحالة المتحدث عنها.

فالتحدي، حين يكون مدفوعاً بمحفزات آيديولوجية بحتة، لا ينتج واقعاً حضارياً بقدر ما يُنتج شكلا حضارياً هشاً، قابلا للانهيار في أي لحظة تضعف فيها الآيديولوجيا، في حالة مشابهة لحالة العصبية لدى ابن خلدون. صحيح إن الآيديولوجيا تعتبر من الضرورات في بداية بناء الحضارة، ولكنها تتحول إلى كارثة على الحضارة إذا استمرت في توجيه مسارات الحضارة بعد ذلك. كل الحضارات، وكل الدول والكيانات التاريخية بدأت وفق نظرة معينة إلى الوجود، أي آيديولوجيا معينة، ولكن الحضارات التي استمرت بعد ذلك، هي تلك التي استطاعت الانتقال من مرحلة التأسيس إلى مرحلة التكوين، ولم تبق في سجن آيديولوجيا التأسيس إلى ما لا نهاية، وهنا يكمن الفرق بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، أو حتى إسرائيل والدول العربية مثلا. فالولايات المتحدة تأسست وفق آيديولوجيا معينة، وآيديولوجيا دينية تحديداً، ولكنها بعد ذلك بقيت نصاً مفتوحاً قابلا للزيادة والنقصان، فيما تأسس الاتحاد السوفيتي وفق آيديولوجيا مغايرة، وهذا ليس نقصاً، ولكن النقص كان حين استمرت هذه الآيديولوجيا في تحديد المسارات التي لا يمكن الخروج عن خطوطها بعد ذلك، فكان الانهيار في النهاية. واليوم، ومع إدارة المحافظين الجدد، تقع الولايات المتحدة في نفس الخطأ السوفيتي حين يغلقون نصاً يفترض أن يكون مفتوحاً، وذلك هو بداية الانحدار إن لم تتدارك الأمور. وإسرائيل تأسست وفق الآيديولوجيا الصهيونية، ولكن هذه الآيديولوجيا الصهيونية الأساسية لم تعد هي المعيار الرئيس بعد ذلك.

الحضارة الحقيقية والباقية هي تلك التي ترسخ شرارة بروميثوس وثقافة التحدي في أعماق الفرد أولا، وليست تلك التي تبني أشكالاً حضارية لأغراض لا علاقة لها بالحضارة، بقدر ما لها علاقة بالدعاية للآيديولوجيا و«انتصاراتها»، دون أن يكون لفلسفة الحضارة وقيمها مكان في عقل ذات الفرد. أثينا الحضارية، وسبارطة المؤدلجة، كانتا ملء السمع والبصر ذات يوم من أيام التاريخ، ولكن أثينا بقيت حتى يومنا بحضارتها وقيمها، فيما لم يعد لاسبارطة أي ذكر أو قيمة إلا كدرس من دروس التاريخ.

من هنا يمكن تقسيم العالم، بل وتاريخ الإنسان على هذه الأرض، إلى قسمين: المتحدون حضارياً، والمتحدون آيديولوجياً، وبينهما من هو في الهامش حضارياً وآيديولوجياً، لا له ولا عليه، أو «لا يهش ولا ينش»، كما يقول المصريون في أمثالهم. المتحدون آيديولوجياً قد ينتجون شكلا من أشكال الحضارة للحظة زمنية معينة، ولكنها حضارة سرعان ما تندثر ولا تترك بصمة خالدة في التاريخ. أما المتحدون حضارياً، أي أولئك الذين يكون الفرد فيهم متشربا لقيم الحضارة، وأولها قيمة التحدي، فإنهم يبقون في سجل الخلود وإن اندثروا مادياً. مشكلتنا العربية المعاصرة، وهذا محاولة للإجابة على السؤال في أول المقالة، هي أننا دائماً من الصنف الثاني، أي المتحدون آيديولوجياً، دون أن نتشرب قيم الحضارة، كما فعلنا ذات يوم من أيام التاريخ. وسواء كنا نرفع لواء الإسلامية أو الليبرالية أو القومية أو اليسارية، فإننا نبقى أسرى الآيديولوجيات دون أن نحاول الخروج منها ولو بعد حين. سر تخلفنا وأزماتنا هو أننا لبسنا قشرة الحضارة، والروح جاهلية..بل آيديولوجية، بالإذن من نزار قباني.

□ مفكر وأكاديمي سعودي

القرآن فوق الزمان والمكان

حسن أحمد عمر
hassanomar75@yahoo.com

الكثيرون يعتبرون أن ما ورد من أحاديث فى كتب الصحاح هى تفسير محض للقرآن الكريم حتى يفهمه الناس وتصبح معانيه فى متناول يدهم وهم بذلك –أصحاب هذا الرأى—يخالفون الواقع المكتوب فى كتب الصحاح لأنها لم ولن تكون تفسيرا محمدياً لكتاب الله العظيم بل هى آلاف من المرويات التى كتبت بعد قرنين من وفاة الرسول الخاتم(ص)ومعروف أن بها أحاديث موضوعة وإسرائيليات ومرويات ذات سند ضعيف أو راو من غير الثقاة مما كان يستوجب أصلاً حذفها من كتب الصحاح لو أنصفوا .

وعلى هذا الأساس فإن ما يفهم من قول الله تعالى (ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) هو أن هذا التبيين معناه أن الرسول عندما يبلغ القرآن الكريم فإنه بذلك يثبت لأهل الكتاب صحة ما انزله الله على رسوليه موسى وعيسى (ص) من كتابى التوراة والإنجيل السماويين وأن المسلم المتدبر بعقل مفتوح فى القرآن الكريم سوف يجد فيه سهولة ويسراً فى فهم آياته والوقوف عند معانيها لقوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) والجهاد الحقيقى فى زماننا هو جهاد البحث والتقصى والتدبر فى معانى القرآن من أجل الوصول لأسرارها وجواهرها المكنونة بالإضافة إلى الجهاد فى البحوث العلمية والمعملية من أجل مواكبة الحضارة والتقدم حتى لا نتحول إلى أمة عابدة فقط تقبع فى المساجد للتدبر والصلاة وتنسى أن العالم قد سبقها علمياً وحضارياً بقرون طويلة.

لعل المتدبر لكتب الله تعالى يتفق معى أن القرآن كتاب أخـلاق وقيم عظمى ومثل عليا قبل أى شىء ولعله --ذلك الباحث المتدبر-- أيضا يتفق معى أن المثل العليا والأخلاق والقيم العظيمة ليس لها علاقة بالزمان والمكان فالحب والتسامح والعدل وكرامة الإنسان وحقوقه والمساواة والحريات كلها مثل وخلق لا علاقة لها بالمكان ولا الزمان فالعدل منذ عشرة آلاف سنة له نفس مفهوم العدل الآن وبعد مليون سنة وكذلك الحرية والمساواة وكرامة الإنسان والتسامح والحب وغيرها.

ولا شك أن المعانى السامية السابقة وأكثر منها هى ما تدعوا له آيات القرآن العظيم

لقد حسم الله النزاع فى حرية الدين والمعتقد حين قال(لا إكراه فى الدين).

وحسم حرية إختيار الدين حين قال(ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وحصر سبحانه القدرة على الهداية له وحده حين قال(إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وحصر القدرة على تأليف قلوب المؤمنين وجمعها على الهدى لله وحده حين قال(لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وحصر سبب النصر له وحده سبحانه حين قال(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وحذر الرسول من إكراه الناس فى الدين حين قال(افأنت تكره الناي حتى يكونوا مؤمنين) ثم قال له ناهياً عن الإصرار على هداية الرافضين للدين حين قال(فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الارض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية).

وجعل الله التقوى أعلى درجات التقرب لله حين قال(وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومعروف أن التقوى هى الخوف من الله والتعامل مع الناس بحب ورحمة وصدق وعدل وعدم ترويعهم أو الإعتداء عليهم تحت أى مسمى وعدم سرقة ممتلكاتهم أو قبول الرشوة منهم أو الإعتداء على أعراضهم أو الإنقاص من شأنهم أو التقليل من كرامتهم أو إحتقارهم أو الإستهانة بهم أو عدم إلقاء التحية عليهم أو عدم رد تحيتهم أو التحدث فيما يمس شرفهم أو كرامتهم أو أعراضهم أو الخوض فى كلام قبيح عنهم أوألـخ كل هذه الأخلاق الكريمة والقيم العظيمة التى فى مجملها تمثل المعنى الحقيقى لكلمة التقوى وهى مجموعة الأخلاق التى لا تختلف أبداً من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان.

لعلك تتفق معى –كذلك—أن القرآن لم ولن يكون كتاب علم من العلوم المتغيرة لأن كلام الله ثابت والعلوم الدنيوية كالطب والأحياء والفيزياء والكيمياء وغيرها كلها علوم متغيرة لا يمكن أن يحتويها القرآن الكريم وإلا فما قيمة عقل الإنسـان لو أنزل الله نظرية علمية لكل مخترع كالطائرة والسيارة وسفينة ألفضاء والتلفزيون والكمبيوتر والراديو الخ رغم أن القرآن العظيم قد دعا للتبحر فى تلك العلوم إلى أبعد الدرجات للوصول بالإنسان إلى أرقى درجات العلم فى مجموعة آيات كريمة نذكر منها ما يلى على سبيل المثال

1- (إنما يخشى الله من عباده العلماء) والعلماء هنا هم المفكرون والمبدعون والمخترعون والمنقبون فى ملكوت الله بحثاً عن الحقيقة .

2- (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف بدء الخلق) هذه دعوة للبحث والتنقيب فى طبقات الأرض المختلفة ووضع النظريات الإفتراضية عن كيفية بدأ الخلق على كوكب الأرض.

3- (أفـلا يـرون انـا نـأتـى الأرضـ ننقصها من أطرافها) وهذه دعوة اخرى للبحث فى مستقبل الكرة الأرضية وهل يتناقص حجمها بالفعل ام ان التناقص يحدث لليابسة فقط ؟

4- (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وهى دعوة للبحث الجاد والدؤوب فى علوم الفلك والكواكب والأجرام السماوية

5- (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) نفس الدعوة السابقة ولكن أعمق.

6- (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) والمشيج هو خريطة الجينات الوراثية داخل الخلية الحية وهى دعوة للبحث فى علوم الجينات والهندسة الوراثية وأكرر دعوة للبحث وليست نظرية علمية.

7- (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) دعوة للبحث فى طب النساء والتوليد

8- (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) أعتبرها دعوة للبحث فى علوم الإتصالات السلكية واللاسلكية أو وصفاً لما سيتوصل إليه الإنسان من علوم الإتصالات المتطورة.

9- (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) دعوة للتفكر والبحث العلمى فى المكونات الكيميائية المختلفة لكل بحر وأسباب عدم إختلاط المياه فيهما

10- (وكان عرشه على الماء) دعوة كريمة من مالك الملك للبحث فى صفات الكرة الارضية قبل أن يخلق الله الخلائق.

11- (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم) وهى دعوة صريحة وواضحة لفهم الممارسة الجنسية بحيث يستفيد من متعتها الطرفان الرجل وزوجته دون إنتهاك من حق احدهم لحساب الآخر.

12- (ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) وهى دعوة للبحث فى هذين المحرمين للوقوف على اسباب التحريم ولمعرفة فوائدهما وأخطارهما.

13- (ومن الجبال جدد بيض وحمر وغرابيب سود) دعوة صريحة للبحث فى تركيب الصخور وعمرها ونشأتها وصفاتها وما بها من معادن وفلزات مفيدة للتقدم البشرى وعلوم الحياة.

14- (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض) وهى دعوة واضحة لهجر الجماع الجنسى أثناء الدورة الشهرية (دم الحيض) لما يمكن أن تسببه من أمراض للرجل إذا غالط نفسه وجامع أثناءها.

15- (و الـوالـدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يتم الرضاعة) وأى طبيب يعرف أهمية هرمون البرولاكتين الذى يفرز بكثرة فى دماء الأم أثناء الرضاعة ويستمر مركزاً فى جسم الأم عشرات السنين وأهمية هذا الهرمون فى مقاومة سرطان الثدى والرحم والمبيض

نعم الـقـرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان حتى يوم القيامة لأنه كتاب مثل عليا وأخـلاق ومبادى وقيم عظيمة حددها الله تعالى فيه ولم يكن كتاباً فى العلوم البحتة كما ذكرنا وإلا لكثرت الآراء والنظريات والشكوك ولو أنـزل الله النظريات العلمية لكل مخترع فإن ذلك يضع العقل البشرى فى ثلاجة ابدية اما القرآن العظيم فلم ولن يوضع فى ثلاجة أبدية أبداً لانه يدعو للعدل والإحسان وصلة الرحم

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)

ويدعوللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر).

ولكن كيف يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

(ادع على سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن).

(ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر).

ونهى القرآن عن قتل النفس حين قال:

(من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكانما أحيا الناس جميعاً)

ودعا للتسامح والعفو:

(فليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم)

(يسألونك ماذا ينفقون قل العفو)

ويدعو لعدم الإعتداء على الآخرين:

(ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين)

(ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)

ولأصحاب الديانات الأخرى يقول:

(لكم دينكم ولى دين)

كتاب ينظم العلاقة بين الأنسان وربه ويفرض عليه مجموعة من العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج ثم يعفى الله الكثيرين من عباده من أداء هذه الفرائض رحمة منه سبحانه فيسقط فريضة الحج عمن لا يستطيع إليها سبيلاً لأى سبب من الأسباب كالفقر أوالمرض.

(ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً) ويسقط الصوم عمن لا يستطيعه ويفرض عليه فدية للفقراء(وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فإن لم يستطع من شدة فقره سقطت عنه الفدية(لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وتسقط الصلاة بشكلها المعروف عن العجزة والمرضى مرضا عضالاً(ليس على الاعمى حرج ولا على المريض حرج ولا على الإعرج حرج) (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)(ورحمتى وسعت كل شىء) ويكتفى بالتسبيح والذكرو الحمد والإستغفار.

ويجعل ذكر الله وتسبيحه اعظم من أى عبادة أخرى

(وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون).

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون)

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلاً) .

ووصلت الدرجة أن يضرب الله المثل بالجمادات التى تسبح بحمده حتى يستيقظ الإنسان من غفوته:

(تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)

(ويسبح الرعد بحمده):

بل ودعا لعدم الإستهزاء بأى مخلوق آخر من الحيوانات والدواب الأخرى:

(وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم امثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون)

ولأن التواصل بينك وبين خالقك سبحانه يجعلك مطمئناً فى كل أوقات حياتك

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

وتواصلك مع الله يجعلك خاشعاً مطمئناً زاهداً فى حطام الدنيا الفانى ولا تخشى الموت لأن نفسك تصبح مطمئنة:

(يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى)

القرآن الكريم يجعلك تهتم بأقل الأمور وأدناها وتهتم بأعظم الأمورحتى التحية التى قد لا يعيرها البعض إهتماماً فإن الله يحاسبك عليها:

(وإذا حييتم بتحية فحيوابأحسن منها او ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً)

القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان لأنه جاء لإصلاح القلوب والأخـلاق وتكريم الإنسان وتعظيم حريته وقيمته وجاء يلعن كل ظالم مستبد يقهر خلق الله أو يفرض عليهم شيئاً بالجبروت والقسوة والقسر حتى لو كان يريد فرض دين الله بالقوة فهو أمر يرفضه الله تعالى وترفضه كل العقول السليمة لأن الإنسان سيحاسب أمام خالقه بناءاً على ما منح من حرية فكرية ودينية وحرية رأى وحرية تعبير وحرية إختيار وإذا حرم هذه الحريات أو بعضها فعلى أى شىء يحاسبه الله وعلى أى أساس وتفقد الحياة قيمتها ومعناها ولذتها بمجرد أن تسلب من الإنسان حريته ورأيه وفكره وكرامته.

القرآن صالح لكل زمان ومكان لأنه يدعو للأخلاق فى أسمى معانيها وللمثل العليا فى أبهى صورها وللكرامة الإنسانية فى أدق واعظم معانيها ولأن هذه المعانى الكبرى ثابتة ولا يمكن لمخلوق تغيير مفاهيمها فهى صالحة لكل زمان ومكان ولأن التشريعات التعبدية تسمو بروح الواحد منا إلى أعلى عليين وترتفع به إلى عالم الملائكة والأرواح فهى صالحة لكل زمان ومكان.

اما عن قول البعض بتحويل القرآن الكريم إلى وثيقة تاريخية فهم واهمون لأنه كتاب الله العظيم وحبله المتين وصراطه المستقيم أنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين ليكون هداية للناس أجمعين لمن أراد منهم أن يستقيم او يتذكر فتنفعه الذكرى.

ولا يمكن أن ننكر أن القرآن به اجزاء من التاريخ القديم الذى حكى قصص السابقين من الأنبياء والمرسلين (ص) وما حدث بينهم وبين طغاة التاريخ مثل قصة إبراهيم والملك الكافر وموسى والفرعون الكافر وعيسى مع بنى إسرائيل وذى النون مع قومه وغيرهم .

كما حكى القرآن الكريم وقصصه الحق المبين حكى لنا عن قصة الرسول الخاتم(ص) مع كفار قريش وكفار الجزيرة العربية وكيف دعاهم ومدى إستجابتهم لدعوته وقصة غزواته ضد الكارهين الإسلام المحاربين للمسلمين والمتربصين بهم الدوائر وكان لكل قصة ودعوة مواقف ودعوات وتشريعات وعلوم وثقافات وخلق لا يسع المجال هنا لتفصيلها فلم يكن القصص القرآنى تاريخاً للتأريخ فقط بل للعظة والعبرة وضرب الأمثلة وتنوير اللاحقين من المسلمين من أمثالنا بقصة الدعوة إلى دين الله تعالى وكيف عانى الرسول فى دعوته وتحمل الأعباء الجسام لنشر ونصر دين الله العظيم .

□ كاتب مصري